جهود عبد القاهر الجرجاني اللغوية من خلال دلائل الإعجاز

Abd-ElQhaher Al-Jorjani Lingistic Efforts Through Dalael Aleaajaz

إكرام ملياني
طالبة دكتوراه
ikram.ikoula@gmail.com
المشرف: أ.د.ناصر سطمبول جامعة وهران1، الجزائر
مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، جامعة وهران1، الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018/12/31 تاريخ القبول:2019/01/20 تاريخ النشر: 2019/03/19

ملخص: يندرج هذا المقال ضمن إطار يسعى إلى إعادة صياغة بعض مقولات نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ضمن الحقل اللغوي كوجه من وجوه هذه النظرية اللغوية من أجل أن يسهم ذلك في تعميق أصالة البعد الجمالي في هذه النظرية القائمة على فاعلية النشاط اللغوي من خلال التركيب، الأمر الذي يقتضي البحث في التراث اللغوي والبلاغي عند عبد القاهر الجرجاني بوصفه واحدا من أكثر معاصريه شعورا بما في هذه اللغة الأدبية من الثراء والغنى، بل إليه يُعزى التفوق والامتياز عن السابقين له واللاحقين به، بما قدمه من الملاحظات المهمة في إطار نظرية النظم.

الكلمات المفتاحية: نظم ; معاني ; نحو ; مقولات ; تراث.

Abstract :*This research paper sheds light on a pertinent subject matter. As it attempts to reformulate some of the quotes of the theory of systems as demonstrated by the autor* ***Abd Al Kaher El Djerdjani*** *within the linguistic field as a part of this linguistic theory so that to contribute and strengthen the authenticity of the aesthetic dimension in this theory which is firmly based on the effectiveness of linguistic activity through the aesthetics composition. In order to fulfil this, a thoughtful investigation will be held to examine the linguistic and rhetorical heritage in* ***Abd Al Kaher El Djerdjani*** *who is regarded as one of the contemporary and innovative writers in this field. More than this, he is widely considered as a pioneer in this field of research, no other writer could provide much richness than him, which is mainly due to his thoughtful observations offered in the field of theory of systems.*

Keywords*: Theory ; linguistic ; systems ; quotes ; heritage.*

1. مقدمة:

إن دراسة جهود عبد القاهر الجرجاني جاءت لحاجة ملحة بغية إشباع الحاجة العلمية وردم فراغات في الدراسات اللسانية المرتبطة بجانبها النحوي الشكلي والوظيفي والتحويلي والتوليدي والتداولي والأسلوبي والنصي، ومن خلال الوقوف على جهود عبد القاهر الجرجاني التي بذلها في بلورة نظرية النظم بوصفها السمة المائزة في التفكير اللغوي التي تخرج بالمفاهيم التي جاء بها شيخ البلاغة من ضيق التشعث إلى رحابة التفرع بغية مساءلة ما تزخر به النظرية من مفاهيم ومصطلحات عبر أسئلة نحسبها مهمة ومنها، هل نظرية النظم بمقدورها أن تمدنا بمفاهيم ومصطلحات تساعدنا على صناعة منظومة مصطلحية عربية وإنشاء مرجعية عربية صلبة يمكن استثمارها في المجالين اللغوي والبلاغي، وهل بمقدور النظرية أن تمدنا بآليات إجرائية على نحو قادر لاستحداث أدوات إجرائية عربية. والإجابة عن هذه الأسئلة -بداهة -تكون بعد دراسة جهود عبد القاهر من خلال كتابه الدلائل.

.2. جهود عبد القاهر النحوية:

1.2 مزية النظم:

إن جهود صاحب الدلائل في رحاب الدّراسات اللّغوية والبلاغية جديرة بالعناية والاهتمام، فقد عاد بالنحو إلى الغاية التي وضع من أجلها، والمتوارية وراء الضوابط السطحية للأبنية، وذلك بهدف فهم الدلالات العميقة التي تعبر عنها البنى التركيبية.

ونلفي عبد القاهر الجرجاني أثناء عرضه لنظرية النظم يبيّن في أكثر من موضع كيف تحدُث المزية في معاني النحو، ولم يكتف بإظهار أهمية النظم في إقامة الكلام على وجوه الصحة والصواب من خلال معاني النحو، بل ساق الدليل تلو الآخر ليثبت أنّ مزية النظم لا تأتي إلا بمراعاة معاني النحو وأحكامه، كما أن فساد النظم يكون بمخالفة هذه المعاني[1] والأحكام، كما في قول الفرزدق:

وَمَا مِثْلُه في النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ[2]

وكما يقول المتنبي:

الطَّيِبُ أنت إذا أصَابَكَ طِيبُهُ وَ الماءُ أنتَ إذا اغتَسَلْتَ الغَاسِلُ[3]

وقول أبي تمام:

ثَانِيهِ في كَبِدِ السَّماء، وَلَم يَكُنْ كَاثْنَيْنِ ثَانٍ إِذْ هُمَا في الغَارِ[4]

استعان عبد القاهر الجرجاني بهذه الأبيات كشاهد لقضية فساد النظم، فنجد الشاعر يحذف تارة ويقدم ويؤخِّر تارة أخرى، كما أنه يلجأ أحيانا إلى عدم ترتيب الألفاظ في الذكر، هذا ناتج من أن الشاعر لم يعمل بقوانين النحو وأحكامه، وترك فهم الغرض للمتلقي، فإدراك الغرض لا يُعدُّ من العمليات العقلية الكبرى في التحليل.

وأما ما كان غير ذلك ممّا استقام نظمُه واستوى تأليفه ووُصِف بالحُسن والمزية؛ لأنه انتظم بمراعاة معاني النحو وأحكامه فمثل قول البحتري الذي يقول:

بَلَوْنا ضَرَائبَ مَن قَد نَرَى فَمَا إنْ رَأَيْنَا لِفَتْح ضَرِيباَ
هُوَ المرْءُ أَبْدَتْ لَهُ الحَادِثَا تُ عَزْمًا وَشِيكًا وَرَأيًا صلِيبَا
تَنَقَّلَ فِي خُلُقِي سُــؤْدَدٍ سَمَاحاً مُرجّى وبَأساً مَهِيباَ
فَكَالسَّيْفِ إن جِئتَهُ صَرِخاً، وكَالبَحْرِ إن جِئتَهُ مُسْتَثِيباَ[5]

وُصِفت هذه الأبيات بفساد النظم، وأن فيها عيب، إذ أصبح الشاعر يُقدم ويُؤخر، ومرات يحذف ويضمر، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه، ولا يسوغ ولا يَصِحُّ على أصول هذا العلم. فإذا ثبت أن سبب الفساد والخلل يكون فقط عندما لا يُعمَل بقوانين هذا الشأن، ثبت أن سبب صِحتِه أن يُعمَل عليها كما بين الجرجاني ذلك حين قال: "...وإذا ثبت جميع ذلك، ثبت أن ليس هو شَيئاً غير تَوَخِّي معاني العلم وأحكامه فيما بين الكَلم"[6].

3. معاني النحو من منظور عبد القاهر الجرجاني

1.3 معاني النحو:

ويقول عبد القاهر الجرجاني معلقا على وجه استقامة النظم على معاني النحو في هذه الأبيات: "فإذا رأيتها قد راقتك وكثُرَت عندك، ووجدتَ لها اهتزازاً في نفسك، فعُد فانظر في السبب واستَقْصِ في النظر، فإنك تعلم ضرورةً أن ليس إلا أنه قدَّم وأخَّر، عرَّف ونكَّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرَّر، وتوخَّى على الجملة وَجْهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو ،فأصاب في ذلك كله، ثم لطَّف موضعَ صَوابه...فلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله: (هُوَ المرْءُ أَبْدَتْ لَهُ الحَادِثَاتُ) ثم قوله (تَنَقَّلَ فِي خُلُقِي سُــؤْدَدٍ)بتنكير سُــؤْدَدٍ، ثم قوله (فَكَالسَّيْفِ)وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأن المعنى لا محالة :فهو كالسيف، ثم تكريره الكاف في قوله:(وكَالبَحْر)، ثم أَن أَخرج أن قَرَنَ إلى كل واحد من التشبيهين شرطاً جوابُه فيه، ثم أَن أخرج من كل واحدٍ من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله (صَرِخاً) هناك و(مُسْتَثِيـباً) ههنا ؟ لا ترى حسناً تَنْسِبه إلى النظم ليس سَبَبُهُ ما عددتُ، أو ما هو في حكم ما عددتُ "...

معاني النحو، كما يشير إليه تعليق الجرجاني الأخير على الأبيات الشعرية، فقد رفعت منزلة الكلام في مراتب المزية والفضل من جهة أخرى ما توخاه الشاعر فيها من ضروب التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والإضمار والإظهار، وما إلى ذلك ممّا يحصل إلاّ بموجب ما يقتضيه وجه من وجوه معاني النحو وأحكامه وقوانينه.

فالفضل والمزية في منظور الجرجاني ليسا خصوصية في معاني النحو، بل هما صفة تكتسبها تلك المعاني حين تصادف موقعا خاصا يقتضيه معنى أو غرض خاص، ومقتضى ذلك أن الجمال الفني في نظره – أيضا- هو جمال موضعي، وإذا أردنا تمثل هذا الجمال في أسلوب من الأساليب، فإنه لا يطلب بمجرد التأمل في بنائه اللّغوي فحسب، بل لابدّ من رصد صلة ذلك الأسلوب بما يقتضيه من معان وأغراض.

والمتأمل في أقوال شيخ البلاغة من خلال كتابه دلائل الإعجاز، يدرك بيسر أنها توضح نظرته الصائبة إلى معاني النحو التّي ترمي إلى جعل التّراكيب اللّغوية، وتنوع أساليبها، وتعدد طرائقها موضوع الدّراسة النحوية، ما تطلبه الدراسات اللغوية الحديثة.

ومن هذا المنظور يكون صاحب الدلائل قد خالف نظرة النّحاة حين جعلوا الأجزاء التحليلية من التّركيب الكلامي موضوع دراستهم، ووجهوا عنايتهم إلى دراسة الجزء بمعزل ومنأى عن غيره.

وأخذت معاني النحو عند الجرجاني معنى واسعا، إذ لامست لُبَّ ما ينهض عليه النظام اللغوي، كما أنه لا ينظر إلى معاني النحو في علاقتها بالنظم من منظور رؤية تحصر مفهوم النحو في إطاره المعياري الضيق، وإنما ينظر إليه نظرة عامة واسعة تتجاوز قضايا الصحة والخطأ وقواعد الإعراب إلى قضايا الجمال والفن والإبداع.

كما أنه حاول إبراز جوهر الدرس النحوي وراء هذه التعليقات، إذ إنه يبحث في وظائف الكلمة من خلال العلاقات السياقية اللغوية، وهذا يعني أن وظيفة النحو ليست البحث عن الخطأ والصواب، وحماية القرآن من اللحن وحسب كما هو شائع، بل إن وظيفته إلى جانب هذا هي إيضاح المعاني، وبيان الفروق اللغوية والمعنوية بين حالات الاستعمال اللغوي.

والحقيقة أن الجرجاني لم يكن همه تصحيح مسار الدرس النحوي الذي أصبح في عصره كما قال: "ضربًا من التكلُّف، وباباً من التعسُّف، وشيئاً يَسْتَندُ إلى أَصل، ولا يُعتَمَدُ على عقل" ، بل كان همه قبل كل شيء بيان دلائل الإعجاز، فوصل إلى أن هناك فرقا بين النحو وتوخي معاني النحو، فالنحو يسعى إلى بيان الأسلوب الصحيح في الكتابة، الذي يطابق أوضاع القواعد النحوية . فيعرِف الدارس للنحو الكيفيةَ التي تتساوق*فيها الكلمات، حتى تصل إلى عقلِ المتلقي، وهذا ليس هدف النظم؛ لأن النظمَ يقوم على اختيار الأساليب التي تؤدي غرض المتكلم، فهو يختار من الأساليب الموضوعة في قوانين النحو ما يمكن أن يعبر عن الأغراض، والمعاني المناسبة للمقام والحال، ليصل بها إلى عقل المتلقي ووجدانه، ولو أراد الجرجاني تجديد النحو لاتخذ مسلكا آخر في تناول النصوص، ولاسْتشهَد بالبراهين التي تهْدِمُ ما أصّله النحويون قبله، حتى كُتُبه لم تنهج هذا المنهج، كما أنه أكد في كتابه "العوامل المائة" نظرية العامل التي اعتمدها النحويون .

والهدف الجوهري من توخي معاني النحو هو رصد اللغة والكلام في أرقى استعمالاتهما، مما جعل دراسة عبد القاهر أقرب إلى الدرس الأدبي والفني، لذا كانت هذه الدراسة بمثابة الجسر الذي يربط الدرس اللغوي بالنقد .

وأخذت قضية معاني النحو في دراسة الجرجاني حيزا واسعا، مما دفع به إلى تحدّيد قاعدة الارتباط بين معاني النحو ومعنى النظم، إذ إنه حصرها في شرطين أساسين: شرط الرتبة (الموضع)، وشرط المعنى أو الغرض، وعلى أساس هذين الشرطين تتفاوت جهات تأدية الكلام حتى تبلغ درجة الإعجاز. وشرط الرتبة يقوم على أساس مفهوم ما يسميه أحد الباحثين بالالتزام التركيبي والذي هو "المصَاحبَة بَين الوَحَدات المشكَّلة والمصمّمة لبِناء الجملة، ويوصَف بأنَّه متكرر في السِّياق المطَابق للسابق، فهو منتظَم بحيث يعكس القَاعِدة التي تحكم طرائِق الأدَاء الكلاَمي، في كونه نوعًا من الجبر في وَضع التركيب على تِلك الصورة، وهو ما يُعرَف بالقِياس في أصُول النَّحو".

2.3 التلازم التركيبي:

ما نعنيه بالتلازم التركيبي هنا ليس فقط ذلك الترتيب الذي يمُسُّ الألفاظ وفق ما تفرِضُه القاعدة النحوية، بل هو ترتيب الوحدات النحوية التي تمثل أجزاء الجملة العربية حتى تصل إلى نوع من التآلف والاتساق في شكل متكرر يطابق القاعدة النحوية. فهذا التطابق يضيف للتركيب النحوي نوعا من التعدد والثراء في تناول المعنى، إذ إننا لا نقصد به التطابق الحرفي، وإنما تقوم هذه المطابقة على فرضيات القياس النحوي العام القائمة على العلة، أو المشابهة وهذا ما يُحدِث التفاوت في درجة الفصاحة والبيان.

والتلازم التركيبي كما يشير إليه جودة مبروك: "فالتَّلازُم التَّركِيبي نَابِع من تِلك الحكمة التِّي صَنَعت المصَاحبة بَين الألفَاظ من حَيثُ الرُتَبُ الكَلاَمية، والمَواقِعُ الإعرَابية، وطَرائِق تَرتيب الجُملة حسب النِظام، فيلزم بوُجود اللَّفظة وُجود نمَط تَركيبي خاص، يُحدِّده نظام تأليف الجُملة أو ما يُعرَف بالنَّظم..."[7]

والنظم كما فهمه عبد القاهر الجرجاني: "هو نَظمُ المعَاني النَّحوية في نَفسِ المتَكلم لبِنَاء الكَلمَات في صُورة جُملة"[8] أو هو "... تَصوَر العَلاقَات النَّحوِية بين الأبوَاب كَتصوَر علاَقة الإسناد بين المُسنَد إليه والمُسند، وتَصوُّر علاقة التَّعدِية بين الفعل والمفعول به، وتَصوُّر علاقة السَّبَبِية بين الفعل والمفعول لأجله وهلم جرا".[9]

وإذا تأملنا مليا قول الجرجاني، فإننا ندرك بأنه نابع من عالم يبحث بوعي في التراكيب اللغوية المنجزة فعلا، ويُركز فيها على الجانب النفسي من النحو الذي به يصير الكلام كلاما فنيا "من حيث هو فن باللغة أساسا"[10]

أدرك عبد القاهر الجرجاني أهمية النحو لذلك أراد أن يوجه البحث فيه توجيها سليما ودقيقا، يقود - لمحالة- إلى فهم الإعجاز اللغوي في كتاب الله (القرآن الكريم)، وأدرك كذلك أن فهم عربية القرآن وكشفَ أسرارها يتوقف على فهم عربية العرب وأساليبهم في التعبير عن المعاني، والأغراض، والمقاصد المختلفة، ولا مناص من فهم هذه الأسرار الكامنة في أساليب العرب دون الوقوف على صورة ذلك في شعرهم الذي يكون قد حفظ لسانهم من الانحراف كما حفظ مجدهم، ولم يكن تنويه الجرجاني بأهمية النحو والشعر معا إلا وسيلة للوصول إلى إثبات مسألة الإعجاز النظمي في القرآن الكريم بصفتها الحقيقة الكبرى التي انبنت عليها المعجزة القرآنية.

4. مرحلة الاكتشاف (النظم)

1.4أهمية النظم:

اِنماز عصر عبد القاهر الجرجاني(ت471ه) بالسليقة، حيث استطاعت اللغة العربية أن تَنفُذ في قلوب أهلها وعقولهم، حتى أصبح الارتجال وإقامة مجالس التفاخر من أبرز العلامات الدالة على ذلك، ورغم كل هذا إلا أنه كان مختلفا عن البقية بفضل جانب التجديد، والخروج عن المألوف على أهل اللغة والنقد فيما يخص العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى[11] ، وهذا بفضل فهمِه العميق للعلاقات الوظيفية التي يُحققها النظم بين أجزاء التركيب المختلفة، في إطار مظاهر الاتساع التي تُتيحها الصيغ التعبيرية في منظومة الكلام العربي، وهذه المنظومة تتسع لتشمل شَكلي التعبير اللغوي الحقيقي والمجازي معا، لأن بلا شك هذا الاتساع هو الذي يسمح بامتداد المعاني ، وانتقال صورها من لفظ لآخر، كما يقول عبد القاهر الجرجاني: "أن صُوَر المعَانِي لا تَتَغيَّر بنَقلِها مِن لَفظٍ إلى لَفظٍ، حتّى يَكُون هنَاك اتِسَاع ومجَازٌ، وحَتّى لاَ يُرَاد من الألفَاظ ظوَاهرُ ما وُضِعت له في اللّغة، ولَكن يشار بمعانيها إلى مَعَانٍ أُخَر".[12]

وفي هذا السياق نجد عبد القاهر الجرجاني يبين لنا أهمية النظم في تحقيق ذلك، كما أنه أضاف بقوله: "...فأمَّا إذا تَغيَّر النَّظم فلابُدَّ حينئذٍ من أن يَتَغيَّر المعنى" [13] فما نستطيع الإشارة عليه، أنه يقوم بربط تغيير النظم بتغير المعنى وهذا التغيير البارز هو ما يُحدث لنا التفاوت والتفاضل بين معنى وآخر في المنظومة الكلامية.

ويميل عبد القاهر الجرجاني للاستدلال بما هو عقلي محض، فنجده يُدعِّم أفكاره فيما يتعلق بطبيعة تفاوت معاني الكلام ليُزيل الإبهام الموجود. فنُلفي في موضع آخر يقوم بتصحيح خطأ تفضيل صفات التعبير على اللفظ فيقول: "... لا يَشُكُّ العَاقل فِي أنه (التفضيل) يَرجع إلى دَلاَلة المعنَى على المعنَى، وأنه لا يُتَصَوَّر أن يُرَاد به دَلالة اللَّفظ على مَعنَاه الذِّي وُضع له في اللُّغة. ذاك لأنه لا يَخلُو السَامعُ أن يكُون عَالماً باللُّغة وبمِعانِي الألفَاظ التي يسمَعُها، أو يكُون جَاهِلا بذلك. فإن كَان عَالماً لم يُتَصَوَّر أن يَتفاوتَ حال الألفاظ مَعه، فيكُون مَعنى لَفظ أسرعَ إلى قَلبِه من مَعنى لَفظٍ آخر وإن كَان جَاهلًا كَان ذلك في وصفه أبعد "[14] .

ومن بين الأمثلة التي ساقها في هذه القضية مثال المجاز بحيث أننا نذكر الكلمة ولكن لا نريد معناها، وإنما نريد المعنى المرادف لها أو شبيهتها، فنُجَوِّزُ* بذلك في ذاتِ الكلمة وفي اللفظ نفسه، فإذا وجدنا هذا فاعلم أن في الكلام مجاز، يقول الجرجاني: "هو أن يكُون التَجَوُّزُ في حكم يُجْرَى على الكلمة فقط، وتَكُون الكَلِمَةُ مَتروكة على ظَاهرِها، ويكون مَعنَاها مَقصوداً في نفسِه ومُراداً من غير توريةٍ ولا تعريض"[15]

أضاف الجرجاني على هذا الشرح المبسط جملة من الأمثلة: كعبارات:

<<نهَارُك صَائم ولَيلُك قَائم>>كذلك <<نَام لَيلي وتَجَلَّى هَمِّي >>، وقوله تعالى: {فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ}[16] ، وقول الفرزدق:

سَقَتْهَا خُرُوقٌ في المَسَامِعِ، لم تَكُنْ عِلاَطاً، ولا مَخْبُوطَةً في المَلاَغِمِ[17]

نلاحظ في هذه الأمثلة التي قدمها لنا الجرجاني وجود مجاز، ولكن لا في ذوات الكلم وأنْفُسِ الألفاظ، وإنما في أحكام أجريت عليها.

ويقول عبد القاهر الجرجاني معلقا: "أفلا ترى أنَّك لم تَتَجوَّز في قولِك: (نهارُك صائمٌ وليلُك قائمٌ)، في نفس (صائم، و قائم)، ولكن في أن أجريتهما خَبَرين على النهار والليل. وكذلك ليس المجاز في الآية في لفظة (ربحت) نفسها، ولكن في إسنادها للتجارة. وهكذا الحكم في قوله: (سَقَتهَا خروقٌ) ليْس التجوُّز في نفس <سَقَتها>، ولكن في أن أسندَها إلى الخروق".[18]

نلاحظ أن كل كلم قد وُضِع على حقيقتِه، أي أن المقصود والمراد من لفظة صائم غير الصوم.

قائم ←غير القيام

ربحت ←غير الرّبح

سقت ←غير السقي

الشكل رقم1 دلالات الصوم

كذلك كما ذكر الجرجاني في مثاله:

"و سَالتْ بأعناق المَطِيَّ الأبَاطِحُ"[19]

أُريدَ بـ (سالت) المعنى الذي وُضِعت له وهو السَّيل.

إذا أشرنا سابقا أن المعنى المُنتَج بواسطة الصُّور البيانية لا يتشكل إلا بفاعلية النحو من خلال العلاقات الوظيفية المختلفة، فيتوجب علينا أن نعِي قضية المعنى الثاني من خلال النظم، ونجعل النظم وسيلة لغاية، وليس غاية في حدّ ذاتها، فكما هو معروف أن قضية النظم أوسع من أن يستوعبها بحث متواضع.

2.4 معنى المعنى:

يشير عبد القاهر الجرجاني إلى شطرٍ أخرَ يخص ظاهرة توظيف المعنى، ومعنى المعنى، بحيث اشتملت مادة موضوع الجرجاني الكلام بوصفه "ظاهرةً من ظواهر الاستخدام اللغوي الموظف لأغراض حيوية لا تتحقق إلا من خلال الاستخدام"[20] ما يعنيه هنا الجرجاني هو الكلام البشري الذي يحمل معنى؛ لأن " الكلام البشري وحده هو الذي يرقى إلى مستوى الظاهرة التي ستكون موضع التأمل والفحص، ظاهرة توظيف المعنى

من أجل توليد معنى ثان أو آخر منه، وهذا المعنى الآخر لن يرجع الأمر فيه إلى المتكلم وحده، أي لن يكون مفهوما إلا لصاحبه فحسب، بل المعول في تحققه وإدراكه على مستقبِل الكلام نفسه"[21].

لذلك "فالجرجاني –منذ اللحظة الأولى- يوجه الخطابَ إلى متلقي الكلامِ نفسه، الذي يناط به دائما فهم معنى الكلام، ناهيك عن معنى معناه"[22]، أي لابد أن يبدأ فهم معنى الكلام من النص وينتهي إلى المتلقي، إذ يخلص عبد القاهر الجرجاني إلى أن المعنى يُؤدى إلى المتلقي عبر صيغ تعبيرية مختلفة، يشملها ما يعبر عنه بعلم المعاني؛ لأنه الأصل في صحة المعنى وسلامته؛ لكون الكلام فيه يوافق مقتضى حال المتلقي.

ويظل هذا الطرح منحصرا فقط في حدود تبليغ المعنى لا معنى المعنى، ولو أن المعنى في ذلك يتجاوز الدلالة التي تُؤديها اللغة، حيث تقوم بتحقيق التواصل الإنساني بين أفراد المجتمع الواحد؛ لأن اللغة في علم المعاني تتحول إلى أداء فردي خاص، أي أنه يعبر عن أغراض مخصوصة بما يناسب حال وموضع المتلقي من جهة، ومقصود المتكلم من جهة أخرى.

وانطلاقا مما ذُكر فإن العنصر الذي يُحدث التغيير في البنية التركيبية للكلام، ليس العدول المجازي، بانزياح اللغة من الحقيقة إلى الخيال، وإنما يشمل كل ظواهر التحول الأسلوبي ضمن علاقات التفاعل التركيبي المختلفة؛ لأن الصورة المجازية –في رأي الجرجاني- شكل من أشكال التركيب الذي يحصل بالنظم، بحيث تتخذ فيه الألفاظ ترتيبا خاصا؛ لأن انحراف اللغة من الدلالة المعجمية إلى الدلالة المجازية يجب أن يكون مقرونا بقرينة تدل على ذلك الانزياح، والتي تقوم بصرف التعبير من المعاني الأصلية إلى معان أخرى مرتبطة بالمقصد الجديد، فانعدام وجود قرينة عند المتكلم واستعماله ألفاظ لغير ما وُضعت له في الأصل من دون قرينة هذا ما يصعب على المتلقي استيعابه وفهمه.

3.4 دور المتلقي في بناء المعنى:

ولذلك نجد عبد القاهر الجرجاني يربط دائما فهم الدلالة والمعنى أو معنى المعنى بالمخاطَب كونه متلقيا معنيّا بالكلام، وأشار لذلك بقوله: "وجملة الأمر إنما يتصور أن يكون المتلقي لمعنى أسرع فهما منه لمعنى آخر، إذ كان ذلك ما يدرك بالفكر، وإذا كان مما يتجدد له العلم به عند سماعه للكلام وذلك محال في دلالة الألفاظ اللغوية؛ لأن طريقة معرفتها التوقيف والتقدم بالتعريف."[23]

العلاقة التي أقامها الجرجاني بين استيعاب الدلالة والمتلقي، أدت إلى ظهور معنى ثان يجب على المتلقي إدراكه، وهذا ما يختلف من متلق لآخر، إذ يستطيع هذا الأخير أن يدرك الدلالة ويفهم المعنى الثاني في مدة زمنية قصيرة، بينما يمكنه أن يبقى منحصرا فقط في الدلالة الأولى، فلهذا أكّد صاحب الدلائل على وجود مرجعية مشتركة فيما بينهما.

ونتج عن هذا الترابط الذي أقامه عبد القاهر الجرجاني بين فهم الدلالة والمتلقي، ظهور معنى ثان على المتلقي إدراكه، فقد يتأخر هذا الإدراك أو يغيب أصلاً، كما يمْكنه أن يصل بصورة سريعة فقط إذا كان حال المتلقي مُوافقا لحال الخطاب، يعني وصول الدلالة في هذه الرسالة قائم على الاستدلال -كما يتصور ذلك الجرجاني- غير أن هذا الأخير وحده غير كافٍ، يجب أن تكون هناك مرجعية مشتركة بين المتلقي والمخاطِب.[24]

والاستدلال بالمعنى الأول هو الذي يُحيل المتلقي إلى إدراك المعنى الثاني، بانتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني على طريقة الافتراض في التقدير (المعنى الأول)، من ثم يكتشف متلقي الكلام أن الخطاب قد اكتسب ضربا من الكثافة الإيحائية التي تحيل بدورها على تحديد الدلالة الثانية، يعلق عز الدين إسماعيل على نص الجرجاني في مقولته المشهورة "الكلام على ضربين..." بقوله: " في كلا النوعين من الكلام هناك إخبار أو نقل؛ أي هناك معلومة تنتقل من المتكلم إلى المخاطب، والكلام في الحالتين أداة توصيل لهذه المعلومة، غير أنه في النوع الأول من الكلام لا يكاد المخاطَب يبذل جهدا في تحصيل المعنى؛ لأنه حرفي ومباشر، أما في النوع الثاني فالمخاطَب مطالب ببذل نوع من الجهد العقلي في الاستدلال على المعنى المقصود، أو ما نسميه فك شفرة المعنى؛ في الحالة الأولى يوشك أن يكون المخاطَب سلبيا إزاء الدلالة أو المعلومة التي ينقلها إليه الكلام؛ لأنها تتعلق بـ(المعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير وساطة) –على حد قول الجرجاني- أما في الحالة الثانية فيكون موقف المخاطَب إيجابيا وفعالا؛ لأن تحصيل المعنى الثاني المراد من المتكلم الذي لا يعلن عن نفسه صراحة لا يتيسر للمخاطَب –إن هو تيسر- إلا بجهد عقلي"[25].

العمود الأساسي الذي ركز عليه عز الدين إسماعيل من خلال تعليقه على قول الجرجاني، هو الكلام بوصفه منجزاً من اللسان، بحيث يقوم بإنجازها المتكلم قصد التواصل، وتأدية المقصود والإبانة، يقول ابن خلدون بهذا الشأن :"هو أداة تواصل ووسيلة للفهم والإفهام"[26]، كذلك كيفية تحصيل المعاني التي يتلقاها المخاطَب.

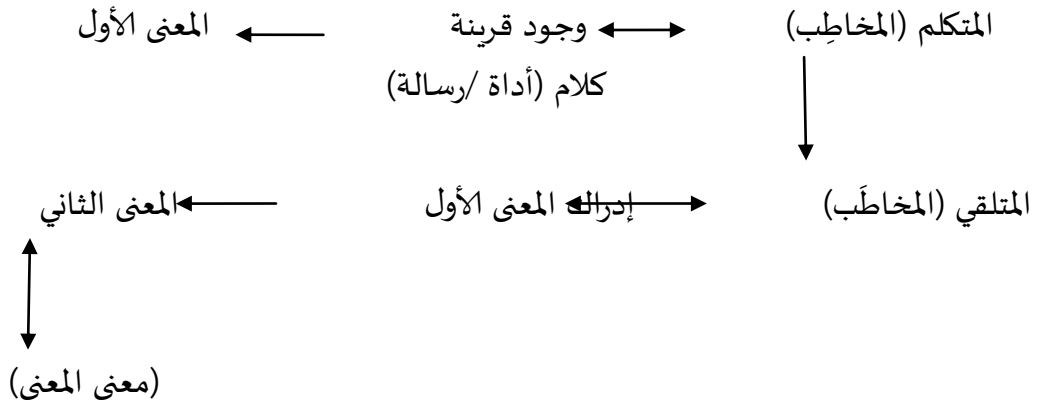

الشكل رقم 2 بناء الدلالات الكلية للخطاب

وطرح الجرجاني موضوع النظم كبديل منهجي، تكتمل معالمه الحقيقية وتتحدد عناصره الجمالية أكثر في ضوء نظرية لغوية ذات طابع تواصلي، ولا شك أن الإمكانية التعبيرية التي تحدث في العملية التواصلية تقوم أساسا على فاعلية النظم، الذي تتحول معه معاني الألفاظ المفردة داخل السياق إلى معاني كلية، تنظمها هيئة التركيب الذي يكون المستهدف فيها المخاطَب أو المتلقي بوصفه المعني الأول بمدلولات التركيب المنتظم.

وأخذ التأمل والتأويل مكانة بارزة في تحقيق الاستجابة الإيجابية لصور النظم، ومن ثمّ للآثار التي يحدثها على صعيد التلقي، وهذا هو التوجه الذي سلكه الجرجاني في تقديره لأهمية الأثر البلاغي للنظم

كفاعلية إيحائية، بحيث مجال التلقي كمفهوم في نظرية القراءة يكشف عن كثير من جوانب النظم التي صاغها عبد القاهر الجرجاني.

5. خاتمة:

تعتبر نظرية النظم من حيث هي قضية لغوية لها أصالتها، مركز التقاء العديد من العلوم اللغوية الحديثة، بحيث أنها تتقاطع مع التداولية والأسلوبية، وخاصة اللسانيات النصية، إذ تتشابه معها في كثير من المفاهيم، واتسمت آراؤه بالجدة والطرافة، وتمكنت من فرض قدرتها على النصوص الأدبية -موضوع المعالجة –وما تطرحه من آليات إجرائية مستمدة من ذلك الإرث الذي سبق عبد القاهر الجرجاني النضج والوعي وهذا ما يستدعي بإلحاح استثمارا واعيا في ضوء ما توصلت إليه الثقافة اللسانية المعاصرة.

6. قائمة المصادر والمراجع:

1- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة دار البيضاء، ط.**3**، (المغرب) **1994**.

2- خليفة الميساوي، المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، منشورات ضفاف، ط**1**، دار الأمان الرباط،**2013**.

3- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله الأستاذ الشيخ محمد عبده، ووقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه الشيخ محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية د.ط، بيروت-لبنان، د.ت.

4- عبد المطلب محمد، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، مصر، **1982**.

5- أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، الكامل في اللّغة والأدب، مؤسسة المعارف د.ط، ، مؤسسة المعارف-بيروت، د.ت.

المجلات العلمية:

1-جودة مبروك محمد، ظاهرة التلازم التركيبي "دراسة في منهجية التفكير النحوي"، - مجلة اللغة العربية، العدد 81، كلية الدراسات الإسلامية والعربية-دبي 2011.

2-عز الدين إسماعيل، قراءة في معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة فصول (محور قضايا المصطلح الأدبي)، العددان الثالث والرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، أبريل 1987.

3-محمد عبد المطلب، النحو بين عبد القاهر وتشومسكي، مجلة الفصول، عدد خاص بالأسلوبية، المجلد الخامس، أكتوبر/ نوفمبر/ ديسمبر، العدد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1984م.

4-محمد عمر الصماري، النحو عند عبد القاهر الجرجاني مقال في كتاب أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، منشورات كلي الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، تونس 1998م.

7. الهوامش:

* طالبة دكتوراه سنة ثالثة بقسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة وهران1.

[1]- المعاني المقصودة هي "معاني النحو" ينظر تعليقه في عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص82-83 على أبيات من شعر: الفرزدق والمتنبي، حسب قوله كذلك "إنما هو فساد النظم واختلاله لأن صاحبه لم يعمل بقوانين النحو وأحكامه.

[2]- ساق عبد القاهر الجرجاني هذا البيت شاهدا على فساد النظم، إذ إنَّ الفرزدق لم يرتّب الألفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر، فكدَّ وكدَّر، ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدِّم ويؤخِّر، ثم أسرف في إبطال النظام وإبعاد المرام.

[3]-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص83.

-إذا اغتسلت الغاسل، تقديره: إذا أصابك الطيب، فأنت طيبة، والماء الغاسل أنت: إذا اغتسلت. يجوز نصبه بفعل مضمر يدل عليه الغاسل: أي تغسل الماء إذا اغتسلت. ثم صار الغاسل بك دالاً عليه. ويجوز رفعه فيكون مبتدأ، والغاسل، صفته، وأنت خبره. يقول: إن الطيب أصابك يطيب بك..... والماء إذا اغتسلت به، اكتسب منك الطهارة.

[4]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص84.

[5]-الضرائب جمع ضريبة، وهي الطبيعة والخلق، والضريب هو المثيل والشبيه، والمستثيب: طالب الثواب.

[6]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص84.

[7]-المرجع السابق، ص104.

[8] -تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط 1994، دار الثقافة دار البيضاء(المغرب) ص187

[9] --المرجع نفسه، ص186.

[10] -محمد عبد المطلب، النحو بين عبد القاهر وتشومسكي، مجلة الفصول، عدد خاص بالأسلوبية، المجلد الخامس، أكتوبر/ نوفمبر/ ديسمبر، العدد الأول، سنة 1984م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص28.

[11] -حين سيطرت المعيارية الصارمة التي تتنازعها فكرة الثنائيات المتناقضة في التمييز بين الخطأ والصواب والجيد والرديء، والحسن والقبيح، والمطبوع والمصنوع، فانزاحت هذه الأحكام التقويمية التجزيئية من الكليات العامة إلى الجزئيات والشروح، وشملت بذلك مسائل: كاللفظ والمعنى، الطبع والصنعة، والأصالة والانتحال...

ولما كانت ثنائية اللفظ والمعنى قائمة باستمرار، فقد كَثُر الجدل بشأن تفضيل أحدهما على الآخر، وحول كيفية الإجادة في كليهما، وإقامة الألفة بينهما.

[12] -عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، ص265.

[13] المصدر نفسه، ص265.

[14] - المصدر السابق، ص267.

* فعل (جَوَّزَ)، جَوَّزْتُ/ أُجَوِزُ، جَوِّزْ، مصدر تَجْويزُ، جَوَّزَ ما كان ممنوعا: سَوَّغَهُ، أباحه وسَمَحَ به /جوَّزَ الحكم: رآه جائزاً.

[15] - المصدر نفسه، ص293.

[16] - سورة البقرة، الآية رقم 16، الجزء الأول ص03.

[17] -ليس في ديوان الفرزدق، وهو له في الكامل للمبرد 1: 45، وسيأتي رقم 467 وفي المطبوعة وحدها: "سقاها" هنا وفيما سيأتي. والضمير في "سقتها" للإبل. و "العلاط" وسم يكون في عتق البعير عرضًا، خطأ أو خطين أو خطوطًا في كل جانب. و "الخياط" سمه فوق الحد، والناقة. "مخبوطة" عليها هذه السمة. و "الملاغم"، ما حول الفم مما يبلغه اللسان ويصل إليه، من اللغام"، وهو زبد أفواه الإبل. ويقول: لم تكن هذه سمات إبله، بل سماتها خروق في آذانها، فلما رآها الذائدون عن الحوض سقوها، وإنما يسقونها لعزّة أصحابها. فكأن الخروق في المسامع هي التي أوردتها الماء وكفت الذائدين عنها.

[18] - المصدر السابق، ص294.

[19] - المصدر نفسه، ص294.

[20] -عز الدين إسماعيل، قراءة في معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة فصول (محور قضايا المصطلح الأدبي)، العددان الثالث والرابع، أبريل 1987، ص38.

[21] - ينظر المرجع نفسه، ص39.

[22] - المرجع نفسه، ص39.

[23] - ينظر المرجع السابق، ص39.

[24] -ينظر عز الدين إسماعيل، قراءة في معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني، ص38.

[25] - ينظر المرجع السابق، ص 40/39.

[26] -خليفة الميساوي، المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، منشورات ضفاف، ط1، 2013، ص 166.

المصادر والمراجع:

1- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة دار البيضاء، ط.**3**، (المغرب) **1994**.

2- خليفة الميساوي، المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، منشورات ضفاف، ط**1**، دار الأمان الرباط،**2013**.

3- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله الأستاذ الشيخ محمد عبده، ووقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه الشيخ محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية د.ط، بيروت-لبنان، د.ت.

4- عبد المطلب محمد، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، مصر، **1982**.

5- أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، الكامل في اللّغة والأدب، مؤسسة المعارف د.ط، مؤسسة المعارف-بيروت، د.ت.

المجلات العلمية:

1-جودة مبروك محمد، ظاهرة التلازم التركيبي "دراسة في منهجية التفكير النحوي"، - مجلة اللغة العربية، العدد 81، كلية الدراسات الإسلامية والعربية-دبي 2011.

2-عز الدين إسماعيل، قراءة في معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة فصول (محور قضايا المصطلح الأدبي)، العددان الثالث والرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، أبريل 1987.

3-محمد عبد المطلب، النحو بين عبد القاهر وتشومسكي، مجلة الفصول، عدد خاص بالأسلوبية، المجلد الخامس، أكتوبر/ نوفمبر/ ديسمبر، العدد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1984م.

4-محمد عمر الصماري، النحو عند عبد القاهر الجرجاني مقال في كتاب أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، منشورات كلي الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، تونس 1998م.